# الآفة الثالثة والعشرون
# القعـود

والآفة الثالثة والعشرون التى قد يُبْتَلى بها نفرٌ من العاملين لدين الله بل لقد أصيب بها بالفعل نفر من هؤلاء، وكانت وراء تمكّن الباطل وإحكامه القبضة حول أعناقنا إنما هى : « القعود » .

وحتى يتطهَّر منها مَنْ ابتلى بها، ويقى نفسه مَنْ سلَّمه الله ـ عز وجل ـ منها، فإنه لابد من إعطاء تصور صحيح واضح عنها، وذلك على النحو التالى :

**أولا : تعريف القعود :**

لغة : يأتى القعود فى لغة العرب على معان، منها :

أ ـ الجلوس بعد قيام، نقول : قعد فلان : جلس بعد أن كان قائما .

ب ـ الانقطاع والترك للأمر، أو التأخر عنه، نقول : قعدت المرأة عن الحيض والولد : انقطعت، وقعد عن الأمر : تركه أو تأخر عنه .

جـ ـ الاحتباس عن الشىء ، نقول : ما قَعَّدك عن الأمر ، وأقعدك ، أى ما حبسك.

د ـ عدم الاهتمام بالأمر، نقول : قعد عن الأمر : ليس مهتما به .

هـ ـ الداء يصيب الجسد فيقعده، وقيل : داء يأخذ فى أوراك الإبل، فيميلها إلى الأرض، أو هو الزَّمِن الذى لا يشفى .

ولا تعارض بين هذه المعانى جميعا، فإنَّ الداء حين يصيب الجسد ويتمكن منه، يعوق صاحبه عن مواصلة السير، فإذا هو قاعد أو منقطع، أو على الأقل متأخر مع عدم اكتراث واهتمام[1] .

---

(١) انظر : لسان العرب لابن منظور ٣/ ٣٥٧ ـ ٣٦٤، والمعجم الوسيط ٢/ ٧٤٨، ٧٤٩، مادة : « قعد » بتصرف كثير .

اصطلاحا : والقعود فى اصطلاح الدعاة العاملين لدين الله : مرض يصيب الداعية من داخله يعوقه عن مواصلة السير فى الطريق إلى نهايتها، فإذا هو قاعد أو منقطع، أو على الأقل متأخر عن الركب دون اكتراث أو مبالاة واهتمام .

يقول ابن عطية ـ رحمه الله ـ فى تفسير قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ(٤٦)﴾ [التوبة] : « والقعود هنا عبارة عن التخلف والتراخى كما فى قول الشاعر :

واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسى» (١)

ويقول العلامة الألوسى ـ رحمه الله ـ فى تفسير هذه الآية : « تمثيل لخلق الله تعالى داعية القعود فيهم، وإلقائه سبحانه كراهة الخروج فى قلوبهم بالأمر بالقعود، أو تمثيل لوسوسة الشيطان بذلك، فليس هنا قول حقيقة، ونظير ذلك قوله سبحانه : ﴿فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ﴾ [ البقرة : ٢٤٣ ] ـ أى أماتهم ـ ويجوز أن يكون حكاية قول بعضهم لبعض، أو إذن الرسول ﷺ لهم فى القعود، فالقول على حقيقته . والمراد بالقاعدين : الذين شأنهم القعود والجثوم فى البيوت كالنساء، والصبيان، والزَّمنى ـ أى المرضى مرضا مقعدا ـ أو الرجال الذين يكون لهم عذر يمنعهم عن الخروج، وفيه على بعض الاحتمالات من الذَّم ما لا يخفى على متدبر » (٢) .

وواضح أن بعض الاحتمالات التى توجب الذم فى نظر الألوسى ما عبر عنه بقوله: « ويجوز أن يكون حكاية قول بعضهم لبعض » .

**ثانيًا : مظاهر القعود ، وقيمته فى ميزان الإسلام :**

وللقعود مظاهر وصور تدل عليه، وأهم هذه المظاهر، وتلك الصور :

١ ـ ترك منهج الله بالمرَّة، والتحاكم إلى مناهج البشر، وهذا وإن كان قليلا لكنَّه ـ كما يشهد الواقع ـ موجود .

٢ ـ ترك الدعوة إلى الله، مع الاستقامة فى النفس والأهل والولد .

٣ ـ التفرغ لإيذاء العاملين لدين الله : تارةً بانتقاصهم، والطعن فى أشخاصهم، وذواتهم، وتارة بانتقاصهم، والطعن فى منهاجهم، وتارة بتأييد مَنْ ينتقصونهم،

---

(١) انظر : المحرر الوجيز فى تفسير الكتاب العزيز ٨ / ١٩٥ .
(٢) انظر : روح المعانى ١٠ / ٤ / ٢٢٢ .

ويطعنون فيهم تلويحا أو تصريحا، وتارة بغير ذلك من السباب، والشتائم، بل ربما الإيذاء البدنى .

٤ ـ السعى لتمزيق صفِّ العاملين لدين الله : تارة بوضع منهاج يوافق منهج الله فى الشكل، ويجافيه ويختلف معه فى المضمون والجوهر، ثم دعوة الناس لاسيما الشباب للانضواء تحت لواء هذا المنهاج المبتدع، وتارةً بالدخول فى هذا المنهج، ثم بالخروج منه، والإشاعة بين الناس أنه ما خرج إلا لفساد المنهج .

٥ ـ الركون إلى الظالمين بصورة أو بأخرى، ثم الدفاع عن هؤلاء الظالمين بكل الأساليب، والوسائل .

٦ ـ الاطلاع على بعض أخطاء العاملين ـ « وكل بنى آدم خطاء، وخير الخطائين التوابون » ـ ثم نشر هذه الأخطاء، وإعلانها على الملأ من الناس .

٧ ـ لىُّ أعناق النصوص، أو استخدامها فى غير موضعها، أو نقلها نقلا مشوَّها بصورة تعبر عن مكنون ما فى النفس من الحقد والكراهية لدين الله، وللعاملين بهذا الدين ولهذا الدين، إلى غير ذلك من المظاهر والصور .

والقعود بهذه المظاهر، وتلك الصور، مذموم فى دين الله، ويكفيه ذمّا أن الله جعله من صفات وخصائص المنافقين إذ يقول سبحانه : ﴿ **الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ(١٦٨)** ﴾ [ آل عمران ] .

أخرج ابن جرير عن السدُّى قال : « خرج رسول الله ﷺ يوم أحد فى ألف رجل، وقد وعدهم الفتح إن صبروا، فلما خرجوا رجع عبد الله بن أبى فى ثلاثمائة، فتبعهم أبو جابر السُّلمى يدعوهم ، فلما غلبوه ، وقالوا له : ما نعلم قتالا ، ولئن أطعتنا لترجعنَّ معنا ، قال : فذكر الله أصحاب عبد الله بن أبى بن سلول ، وقول عبد الله أبى جابر بن عبد الله الأنصارى حين دعاهم، وردَّهم، فقال : ﴿ **الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِم** ﴾ الآية [١] .

وأخرج ابن جرير أيضا، وابن المنذر عن قتادة فى قوله : ﴿ **قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا** ﴾ الآية، قال : « ذكر لنا أنها نزلت فى عدوِّ الله، عبد الله بن أبى » [٢] .

---

(١، ٢) انظر : جامع البيان فى تفسير القرآن ٣/٤/١١١، ١١٢، وعنه نقل السيوطى فى الدر المنثور ٢/ ٣٧٠ .

ويقول سبحانه ـ حكاية عن قوم موسى مع موسى حين طلب منهم أن يدخلوا الأرض المقدَّسة، ولا يترددوا، فخافوا، وامتنعوا ـ قال : ﴿ قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ (٢٤) ﴾ [ المائدة ] .

يقول الألوسى : « فاذهب ـ أى إذا كان الأمر كذلك فاذهب ـ أنت وربك فقاتلا ـ أى فقاتلاهم، وأخرجاهم حتى ندخل الأرض، وقالوا ذلك استهانة واستهزاء به سبحانه، وبرسوله عليه الصلاة والسلام، وعدم مبالاة، وقصدوا: ذهابهما، حقيقة، كما ينبئ عنه غاية جهلهم، وقسوة قلوبهم، والمقابلة بقوله تعالى : ﴿ إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ﴾ »[١] .

ويقول سبحانه : ﴿ فَإِن رَّجَعَكَ اللَّهُ إِلَىٰ طَائِفَةٍ مِّنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَن تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ (٨٣) ﴾ [ التوبة ] .

يقول ابن جرير الطبرى : « يقول جلَّ ثناؤه لنبيه محمدﷺ فإن ردَّك الله يا محمد إلى طائفة من هؤلاء المنافقين من غزوتك هذه، فاستأذنوك للخروج معك فى أخرى غيرها، فقل لهم : لن تخرجوا معى أبدا، ولن تقاتلوا معى عدوّا، إنكم رضيتم بالقعود أول مرَّة، وذلك عند خروج النبىﷺ، لأنكم منهم، فاقتدوا بهديهم، واعملوا مثل الذى عملوا من معصية الله فإن الله قد سخط عليكم »[٢] .

وأيد ما قال بالمأثور، قائلا : « حدَّثنى محمد بن سعد قال : حدثنى أبى، قال : حدثنى عمِّى، قال حدثنى أبى، عن أبيه، عن ابن عباس قال: قال رجل: يا رسول الله، الحر شديد، ولا نستطيع الخروج، فلا تنفر فى الحرِّ، وذلك فى غزوة تبوك، فقال الله: ﴿ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴾. فأمره الله بالخروج، فتخلف عنه رجال، فأدركتهم نفوسهم، فقالوا: والله ما صنعنا شيئا، فانطلق منهم ثلاثة، فلحقوا برسول اللهﷺ فلما أَتَوْهُ تابوا ، ثم رجعوا إلى المدينة ، فأنزل الله : ﴿ فَإِن رَّجَعَكَ اللَّهُ إِلَىٰ طَائِفَةٍ مِّنْهُمْ ﴾ إلى قوله: ﴿ وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِ ﴾ فقال رسول اللهﷺ : «هلك الذين تخلَّفوا »، فأنزل الله عذرهم لما تابوا، فقال: ﴿لَّقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ﴾ إلى قوله: ﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١١٨) ﴾ [ التوبة ]، وقال: ﴿ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١١٧) ﴾ »[٣] ، ثم ساق آثارا أخرى فى غير هذا المعنى، وعاد فقال : « والصواب من التأويل فى قوله : ﴿الْخَالِفِينَ ﴾ ما قال ابن عباس »[٤] .

---

(١) انظر : روح المعانى ٦ / ٢ / ١٠٨ .

(٢) انظر : جامع البيان ١٠ / ٦ / ١٤٠، ١٤١ .

(٣، ٤) انظر : جامع البيان ١٠ / ٦ / ١٤٠، ١٤١ .

ويقول سبحانه: ﴿ وَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُوا الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُن مَّعَ الْقَاعِدِينَ (٨٦) رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ ﴾ [ التوبة ] .

يقول ابن جرير: « يقول تعالى ذكره : وإذا أنزل عليك يا محمد سورة من القرآن، بأن يقال لهؤلاء المنافقين: ﴿ آمِنُوا بِاللَّهِ ﴾ يقول: صدِّقوا بالله، ﴿ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ ﴾ يقول: اغزوا المشركين مع رسول الله ﷺ ،استأذنك أهل الغنى والمال منهم فى التخلف عنك، والقعود فى أهله، ﴿ وَقَالُوا ذَرْنَا ﴾ يقول: وقالوا لك: دعنا نكن ممن يقعد فى منزله مع ضعفاء الناس ومرضاهم، ومَنْ لا يقدر على الخروج معكفى السفر »[١] .

ويقول سبحانه : ﴿ وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٩٠) ﴾ [ التوبة ] .

ويقول سبحانه : ﴿ لا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلاًّ وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا (٩٥) دَرَجَاتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (٩٦) ﴾ [ النساء ] .

يقول ابن جرير الطبرى : «يعنى جلّ ثناؤه بقوله: ﴿لا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ﴾: لا يعتدل المتخلِّفون عن الجهاد فى سبيل الله من أهل الإيمان بالله، وبرسوله، المؤثرون الدِّعة والخفض والقعود فى منازلهم على مقاساة حرِّ الأسفار، والسير فى الأرض، ومشقة ملاقاة أعداء الله بجهادهم فى ذات الله، وقتالهم فى طاعة الله، لا أهل العذر منهم، بذهاب أبصارهم،وغير ذلك من العلل التى لا سبيل لأهلها، للضرر الذى بهم، إلى قتالهم وجهادهم فى سبيل الله ﴿وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾، ومنهاج دينه، لتكون كلمة الله هى العليا، المستفرغون طاقتهم فى قتال أعداء الله، وأعداء دينهم ﴿بِأَمْوَالِهِمْ﴾ إنفاقا لها فيما أوهن كيد أعداء أهل الإيمان بالله، وبأنفسهم مباشرة بها قتالهم بما تكون به كلمة الله هى العالية وكلمة الذين كفروا السافلة »[٢] .

ويقول رسول الله ﷺ: « مَنْ رابط يومًا أو ليلة كان له كصيام شهر للقاعد، ومَنْ مات مرابطًا فى سبيل الله، أجرى الله له أجره، والذى كان يعمل : أجر صلاته

(١) انظر : جامع البيان ١٠ / ٦ / ١٤٣ .
(٢) انظر : جامع البيان ٥ / ٤ / ١١٤ .

وصيامه، ونفقته، ووقى مِنْ فتّان القبر، وأمن من الفزع الأكبر »[١] . إلى غير ذلك من النصوص .

والآيات وإن كان أكثرها فى المنافقين إلا أنها توحى من طرف خفى بذمِّ القعود مطلقا بغير عذر مقبول، سواء انتهى بصاحبه إلى أن يكون منافقًا كهؤلاء الذين نزلت فيهم هذه الآيات، أو انتهى به إلى أن يكون مسلمًا مرتكبًا إثمًا عظيمًا .

**ثالثًا : أسباب القعود :**

وللقعود عن العمل لدين الله ـ عزَّ وجلَّ ـ أسباب تؤدى إليه، وبواعث توقع فيه، وأهم هذه الأسباب، وتلك البواعث :

**١ ـ المعصية :**

ذلك أن المرء إذا تلطخ بالمعصية بكل أشكالها وصورها : الظاهرة منها والباطنة، الصغيرة منها والكبيرة، ولم يبادر بالتوبة، والإنابة والرجوع إلى الله ـ عزَّ وجلَّ ـ فإن هذه المعصية تؤدى إلى مرض القلب، بل موته، وحينئذ لا يكون للقلب سيطرة على الجوارح، ويجد شياطين الإنس والجن، وكذلك الدنيا ببريقها وزخارفها وزيناتها، الطريق مفتوحة للوسوسة والإغواء والإغراء بكل ما يغضب الله ورسوله، ومنه القعود عن العمل لدين الله بصورة أو بأخرى على النحو الذى قدَّمنا .

وقد نبَّه الحقُّ ـ تبارك وتعالى ـ إلى أن المعصية تقود إلى كلِّ شرّ من خلال ما حكاه عن بعض جرائم بنى إسرائيل، وأن المعصية إنما كانتْ السبب فى ارتكاب هذه الجرائم، حيث يقول سبحانه : ﴿ **وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ** (٦١) ﴾ [ البقرة ] .

يقول ابن جرير ـ رحمه الله ـ فى إجمال تفسير هذه الآية : « ومعنى الكلام : فعلت بهم ما فعلت من ذلك بما عصوا أمرى، وتجاوزوا حدِّى إلى ما نهيتهم عنه»[٢] . كما نبَّه إليه رسول الله ﷺ بقوله : « تعرض الفتن كالحصير عودا عودا، فأى قلب أشربها نكت فيه نكتة سوداء، وأى قلب أنكرها نكت فيه نكتة بيضاء، حتى تصير على

---

(١) الحديث أخرجه أحمد فى : المسند ٥/ ٤٤٠ من حديث سلمان مرفوعا بهذا اللفظ، وأورده الهيثمى فى: مجمع الزوائد : كتاب الجهاد : باب فى الرباط ٥/ ٢٩٣ من حديث سلمان بنحوه، وعقب عليه بقوله : « رواه الطبرانى وفيه مَنْ لم أعرفهم » .

(٢) انظر : جامع البيان ١ / ٢٥٢ .

قلبين، على أبيض مثل الصفا، لا تضره فتنة ما دامت السموات والأرض، والآخر أسود مربادا كالكوز مُجَخِّيًا لا يعرف معروفا ولا ينكر منكرا، إلا ما أشرب من هواه »[١] .

ولابن قيم الجوزية تصويران لأثر المعصية على العبد ؛ أحدهما واسع مطول يكفى أن نحيل القارئ عليه[٢] ، والآخر موجز يقول فيه : « والمقصود أن الذنوب والمعاصى سلاح، ومدد يمد بها العبد أعداءه، ويعينهم بها على نفسه، فيقاتلونه بسلاحه، ويكون معهم على نفسه، وهذا غاية الجهل : ما يبلغ الأعداء من جاهل، ما يبلغ الجاهل من نفسه »[٣] .

## ٢ ـ التوسع فى المباحات :

وذلك أن الله عز وجل لم يمنع عباده من نصيبهم من المباحات ولكنّه حمايةً لهم ورحمةً بهم طلب منهم أن يكون أخذها بتوسط واعتدال فقال سبحانه : ﴿ **وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ** ﴿٣١﴾ ﴾ [ الأعراف ] . ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ** ﴿٨٧﴾ ﴾ [ المائدة ] .

ويوم تغيب هذه الحقيقة عن بال المسلم ويتوسع فى المباحات، ينتهى به هذا التوسع إلى القعود، وترك العمل لدين الله، لاسيما وطريق الله ليست مفروشة بالحرير والورود، وإنما محفوفة بالمخاطر والمتاعب، والآلام، ومفروشة بالأشواك، ومروية بالدموع، ومزدانة بالدماء والجماجم .

وقد تنبه سلف الأمة إلى هذا السبب، فحذروا من الوقوع فيه . هذه عائشة رضى الله عنها تقول : « أول بلاء حدث فى هذه الأمة بعد نبيها : الشبع، فإن القوم لما شبعت بطونهم سمنت أبدانهم، فضعفت قلوبهم، وجمحت شهواتهم »[٤] .

وهذا عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول: « إياكم والبطنة فى الطعام والشراب، فإنها مفسدة للجسد، مورثة للسقم، مكسلة عن الصلاة، وعليكم بالقصد فيهما، فإنه أصلح للجسد، وأبعد من السرف، وإن الله تعالى ليبغض الحبر السمين، وإن الرجل لن يهلك حتى يؤثر شهوته على دينه »[٥] .

---

(١) الحديث سبق تخريجه فى الجزء الثانى، آفة : « اتباع الهوى » .

(٢) انظر : الداء والدواء ، أو الجواب الكافى لمن سأل عن الدواء الشافى : فصل : المعاصى عدو لدود ص ١٣٨ ـ ١٤٩ .

(٣) انظر : المحرر الوجيز ٨ / ١٨٣، ١٨٤ .

(٤، ٥) سبق تخريج هذه الآثار فى الجزء الأول، آفة : « الفتور » .

وإذ يقول أبو سليمان الدارانى : « من شبع دخل عليه ست آفات : فَقَدَ حلاوة المناجاة، وتعذر حفظ الحكمة، وحرمان الشفقة على الخلق ـ لأنه إذا شبع ظن أن الخلق كلهم شباع ـ وثقل العبادة، وزيادة الشهوات، وأن سائر المؤمنين يدورون حول المساجد، والشباع يدورون حول المزابل» (١) .

٣ ـ تمكن الدنيا من القلوب :

وذلك أن الدنيا إذا تمكنت من القلوب حملت صاحبها حملا على الركون إليها، والاطمئنان والرضا بها، والغفلة عن الآخرة وترك العمل لهذه الآخرة، وهذا هو القعود بعينه .

ولقد بيَّن سبحانه وتعالى فى كتابه هذا السبب حين قال : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ ﴾

[ التوبة : ٣٨ ]

يقول ابن عطية ـ رحمه الله : « هذه الآية هى بلا خلاف، نازلة عتابا على تخلف من تخلف عن رسول الله ﷺ فى غزوة تبوك، وكانت سنة تسع من الهجرة بعد الفتح بعام، غزا فيها الروم فى عشرين ألفا بين راكب وراجل وتخلف عنه قبائل من الناس، ورجال من المؤمنين كثير، ومنافقون، فالعتاب فى هذه الآية هو للقبائل، وللمؤمنين الذين كانوا بالمدينة، وخص الثلاثة : كعب بن مالك ، ومرارة بن الربيع ، وهلال بن أمية بذلك التأنيب الشديد بحسب مكانهم من الصحبة إذ هم من أهل بدر، وممن يقتدى بهم، وكان تخلفهم لغير علة حسب ما يأتى » (٢) .

ويقول أيضًا : « وقوله: ﴿ أَرَضِيتُم ﴾ تقرير، يقول: أرضيتم نزر الدنيا على خطير الآخرة، وحظها الأسعد » (٣) .

وكذلك نبَّه ربُّ العزة إلى هذا فى قوله سبحانه : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلا أَخَّرْتَنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ ﴾ [ النساء : ٧٧ ] .

يقول ابن عطية : « ومعنى : ﴿ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ ﴾ : أمسكوا عن القتال ، وقوله :

---

(١) سبق تخريج هذا الأثر فى الجزء الأول، آفة : « الفتور » .

(٢، ٣) انظر : المحرر الوجيز ٨ / ١٨٣، ١٨٤ .

﴿يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ﴾ يعنى : أنهم كانوا يخافون الله فى جهة الموت ؛ لأنهم لا يخشون الموت إلا منه، فلما كتب عليهم قتال الناس رأوا أنهم يموتون بأيديهم فخشوهم فى جهة الموت كما كانوا يخشون الله »(١) .

ويقول أيضا : « ﴿إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ : الأجل القريب : يعنون به موتهم على فرشهم، هكذا قاله المفسرون ، وهذا يحسن إذا كانت الآية فى اليهود أو المنافقين ، وأما إذا كانت فى طائفة من الصحابة، فإنما طلبوا التأخر إلى وقت ظهور الإسلا، وكثرة عددهم »(٢) .

ونبه إليه أيضا فى قوله سبحانه : ﴿مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِن بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ﴾ [ النحل ] .

يقول ابن عطية : « ولما فعلوا فعل من استحب ألزموا ذلك، وإن كانوا غير مصدقين بآخرة لكن الأمر فى نفسه بين، فمن حيث أعرضوا عن النظر فيه كانوا كمن استحب غيره»(٣) .

ويقول العلامة الألوسى ـ رحمه الله : « ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى الكفر بعد الإيمان، أو الوعيد الذى تضمنه قوله تعالى: ﴿فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾، أو المذكور من الغضب والعذاب ﴿بِأَنَّهُمُ﴾ ، أى بسبب أن الشارحين صدورهم بالكفر ﴿اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ أى آثروها ، وقدموها ، ولتضمن الاستحباب معنى الإيثار قيل : ﴿عَلَى الْآخِرَةِ﴾ فَعُدِّى بعلى ، والمراد على ما فى البحر ـ أى على ما جاء فى تفسير البحر المحيط لأبى حيان ـ أنهم فعلوا فعل المستحبين ذلك ، وإلا فهم غير مصدقين بالآخرة »(٤) .

وكذلك نبه إليه فى قوله سبحانه : ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٢٩﴾﴾ [ النجم ] .

---

(١) انظر : المحرر الوجيز ٤ / ١٧٨ .
(٢) انظر : المحرر الوجيز ٤ / ١٧٩ .
(٣) انظر : المحرر الوجيز ١٠ / ٢٣٨ .
(٤) انظر : روح المعانى ١٠ / ١٤ / ٢٣٨، ٢٣٩ .

يقول ابن عطية : « وقوله : ﴿ وَلَمْ يُرِدْ إِلاَّ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾ معناه : لا يصدق بغيرها، فسعيه كله وعمله إنما هو لدنياه »(١) .

ويقول الألوسى: « فأعرض عمن أعرض عن ذكرنا المفيد للعلم الحق، وهو القرآن العظيم المنطوى على بيان الاعتقادات الحقة، المشتمل على علوم الأولين والآخرين، المذكر للآخرة ، وما فيها من الأمور المرغوب فيها، والمرهوب عنها، والمراد بالإعراض عنه : ترك الأخذ بما فيه وعدم الاعتناء به، وقيل : المراد بالذكر : الرسول ﷺ ، وبالإعراض عنه: ترك الأخذ بما جاء به، وقيل: المراد به الإيمان، وقيل : هو على ظاهره، والإعراض عنه : كناية عن الغفلة عنه ـ عز وجل ـ ﴿ وَلَمْ يُرِدْ إِلاَّ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾: راضيا بها، قاصرا نظره عليها، جاهدًا فيما يصلحها كالنضر بن الحارث، والوليد بن المغيرة، والمراد من الأمر المذكور: النهى عن المبالغة فى الحرص على هداهم، كأنه قيل: لا تبالغ فى الحرص على هدى من تولى عن ذكرنا وانهمك فى الدنيا بحيث كانت منتهى همته، وقصارى سعيه »(٢) .

## ٤ ـ عدم استصحاب نية المضى إلى آخر الطريق وعدم العمل بمقتضى هذه النية :

وذلك أن سنته سبحانه فى خلقه مضت بأن من نوى الخير وعمل بمقتضى هذه النية، فإنه سبحانه يوفقه ويؤيده حتى يصل إلى ما يريد، ومن نوى الشر وعمل بمقتضى هذه النية، فإنه سبحانه يتخلى عنه ويخذله فلا يوفق إلى الخير أبدا، ويضيع، إذ يقول سبحانه : ﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴿١٧﴾ ﴾ [ محمد ] ، ﴿ وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى ﴾ [ مريم : ٧٦ ] ، ﴿ قُلْ مَن كَانَ فِي الضَّلالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا ﴾ [ مريم : ٧٥ ]، ﴿ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ [ الصف : ٥ ] .

وانطلاقا من هذه السنة لله فى خلقه فإن من لا يستصحب نية المضى فى الطريق إلى نهايتها، ويترك العمل بمقتضى هذه النية، تكون عاقبته الحرمان من توفيق الله وتأييده، ويكون القعود، وقد نبه رب العزة إلى هذا السبب وهو يتحدث عن المنافقين الذين قعدوا عن شهود تبوك مع النبى ﷺ بأعذار واهية، وأن السبب الحقيقى إنما هو عدم استصحاب نية الجهاد، والخروج مع رسول الله ﷺ ، وآية ذلك أنهم لم يعملوا بمقتضى هذه النية ، فكانت العاقبة أن كره الله خروجهم فخذلهم ، وذلك فى قوله سبحانه : ﴿ وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾ [ التوبة ] .

---

(١) انظر : المحرر الوجيز ١٥ / ٢٧١ .

(٢) انظر : روح المعانى ١٠ / ٢٧ / ٦٠ .

يقول ابن عطية: « وقوله تعالى: ﴿ وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ ﴾ الآية حجة على المنافقين، أى ولو أرادوا الخروج بنياتهم لنظروا فى ذلك، واستعدوا له قبل كونه »[١].

ويقول الألوسى: « ﴿ وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً ﴾، أى أهبة من الزاد والراحلة، وسائر ما يحتاج إليه المسافر فى السفر الذى يريده »[٢].

**٥ ـ العيش وسط القاعدين:**

وذلك أن المرء كثيرًا ما يتأثر بالوسط الذى يعيش فيه سواء أكان هذا الوسط قريبًا ـ وهو البيت ـ أم بعيدا ـ وهو المجتمع ـ لاسيما إذا لم تكن لديه الحصانة الكافية التى يقاوم بها هذا الوسط القاعد، وكان هذا الوسط حريصا على إقعاده بطريق أو بأخرى من سخرية واستهزاء، إلى إغواء وإغراء، إلى تخويف وتثبيط، إلى غير ذلك، وليست له من تهمة ولا جريرة إلا أنه عامل متحرك بدين الله عز وجل، وتكون العاقبة التخلف والقعود؛ ولذا جاء عنه ﷺ قوله: « الرجل على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل »[٣]، « لا تصاحب إلا مؤمنا ولا يأكل طعامك إلا تقى »[٤].

**٦ ـ عدم اليقين بوعد الله ورسوله:**

وذلك أن الله وعد المؤمنين العاملين الاستخلاف والتمكين، والأمن والأمان، قال تعالى: ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٥٥) ﴾ [ النور ]. ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ (١٧٢) وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (١٧٣) ﴾ [ الصافات ]. ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا (٢٨) ﴾ [ الفتح ].

---

(١) انظر: المحرر الوجيز ٨ / ١٩٤.

(٢) انظر: روح المعانى ١٠ / ٤ / ١١١.

(٣) الحديث أخرجه أبو داود فى: السنن: كتاب الأدب: باب من يؤمر أن يجالس ٤/ ٢٥٩ رقم (٤٨٣٣)، والترمذى فى: السنن: كتاب الزهد: باب منه ٤ / ٥٠٩ رقم (٢٣٧٨) وعقب عليه بقوله: « هذا حديث حسن غريب »، كلاهما من حديث أبى هريرة رضي الله عنه مرفوعا بهذا اللفظ.

(٤) الحديث أخرجه أبو داود فى: السنن: كتاب الأدب: باب من يؤمر أن يجالس ٤ / ٢٥٩ رقم (٤٨٣٢)، والترمذى فى: السنن: كتاب الزهد: باب ما جاء فى صحبة المؤمن ٤ / ٥١٩ رقم (٢٣٩٥) وعقب عليه بقوله: « هذا حديث حسن إنما نعرفه من هذا الوجه »، والدارمى فى: السنن: كتاب الأطعمة: باب من كره أن يطعم طعامه إلا الأتقياء ٢ / ١٠٣، كلهم من حديث أبى سعيد الخدرى رضي الله عنه.

﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿٨﴾ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [ الصف ] .

وأكد النبى ﷺ ذلك فقال : « ليبلغن هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار، ولا يترك الله بيت مدر ولا وبر إلا أدخله الله هذا الدين ، بعز عزيز ، أو بذل ذليل ، عزا يعز الله به الإسلام ، وذلا يذلبه الكفر»[(١)] ، « تكون النبوة فيكم ما شاء الله أن تكون ، ثم يرفعها إذا شاء ، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة، فتكون ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون ملكا عاضا ـ وفى رواية : عضوضا ـ فتكون ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون ملكا جبريا، فتكون ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة »[(٢)] ، « بشر هذه الأمة بالسناء والرفعة والدين، والتمكين فى الأرض، فمن عمل منهم عمل الآخرة للدنيا لم يكن له فى الآخرة نصيب »[(٣)] إلى غير ذلك من الأحاديث .

ومن لم يوقن بهذا الوعد، فإنه يقعد لا محالة، ويترك العمل لدين الله من الدعوة والجهاد .

---

(١) الحديث أخرجه أحمد فى : المسند ٤ / ١٠٣، وأورده الهيثمى فى : مجمع الزوائد : كتاب المغازى والسير : باب علو الإسلام على كل دين خالفه وظهوره عليه ٦ / ١٧ وعقب عليه بقوله : « رجال أحمد رجال الصحيح »، والبيهقى فى : الكبرى : كتاب السير : باب إظهار دين النبى ﷺ على الأديان ٩ / ١٨١، والحاكم فى : المستدرك ٤/ ٤٣٠، ٤٣١ وعقب عليه بقوله : « هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه » ووافقه الذهبى، كلهم من حديث تميم الدارى رضي الله عنه .

(٢) الحديث أخرجه أحمد فى : المسند ٤ / ٢٧٣ من حديث حذيفة مرفوعا، وأورده الهيثمى فى : مجمع الزوائد : كتاب الخلافة : باب كيف بدأت الإمامة وما تصير إليه والخلافة والملك ٥ / ١٩١، ١٩٢ من حديث حذيفة مرفوعا، وعقب عليه بقوله: « رجاله ثقات » وعن الهيثمى نقل الدكتور يوسف القرضاوى فى : ثقافة الداعية ص ٦٧، ٦٨ .

(٣) الحديث أخرجه أحمد فى : المسند ٥ / ١٣٤ من حديث أبى بن كعب مرفوعا بلفظ : « بشر هذه الأمة بالسناء والتمكن فى البلاد والنصر والرفعة فى الدين، ومن عمل منهم بعمل الآخرة للدنيا، فليس له فى الآخرة نصيب » وأورده المنذرى فى : الترغيب والترهيب : كتاب إخلاص النية واتباع الكتاب والسنة : باب الترهيب من الرياء أو ما يقوله من خاف شيئا منه ١/ ١٠٧ رقم (١٥) المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب للمنذرى، انتقاء الدكتور يوسف القرضاوى، من حديث أبى بن كعب مرفوعا بهذا اللفظ، وعقب عليه بقوله : « رواه أحمد، وابن حبان فى صحيحه، والحاكم، والبيهقى، وقال الحاكم : صحيح الإسناد » .

وقد أقره الذهبى على ذلك فى : التلخيص ٤/ ٣١١ وعاد فعقب عليه فى ٤/ ٣١٨ بقوله: « فيه من الضعفاء محمد بن الأشرس السلمى وغيره » . والسر فى هذا الاختلاف : أن الإسناد الأول صحيح والآخر ضعيف، كما يقول الدكتور يوسف القرضاوى .

ولقد نبه رب العزة إلى هذا السبب، وهو يتحدث عن قعود المنافقين بقوله: ﴿وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ [ التوبة: ٩٠ ] .

يقول ابن جرير الطبرى : « يقول تعالى ذكره : وجاء رسول اللهﷺ المعذرون من الأعراب ليؤذن لهم فى التخلف، وقعد عن المجىء إلى رسول اللهﷺ والجهاد معه الذين كذبوا الله ورسوله، وقالوا الكذب، واعتذروا بالباطل »[١] .

## ٧ ـ مباغتة معوقات الطريق مع عدم الفطنة والاستعداد لهذه المعوقات :

ذلك أن هناك معوقات على الطريق من النفس الأمارة بالسوء إلى شياطين الجن، إلى شياطين الإنس، إلى الدنيا ببريقها وزيناتها، ممثلة فى الزواج، والأولاد، والأموال، والمناصب، والوجاهة، والسلطان، ونحوها، إلى طول الطريق نفسها، وما لم يكن المرء فطنا مستعدا لهذه العقبات، وتباغتها، فإنه يصاب بالقعود لا محالة إلا أن يتغمده الله سبحانه وتعالى بفضل منه ورحمة .

وفى قصة الذى كان يعرف بحمامة المسجد، وطلب من النبىﷺ أن يدعو الله له بالغنى، ونصحه النبىﷺ بقوله : « قليل تؤدى شكره خير من كثير يطغيك »، وألح حتى دعا النبىﷺ ربه له بالغنى، وجاءته الدنيا، وما كان فطنا مستعدا، فضاع، وفيه نزل قوله سبحانه : ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ (٧٥) فَلَمَّا آتَاهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَّهُم مُّعْرِضُونَ (٧٦) فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ (٧٧) أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (٧٨) ﴾ [ التوبة ] .

هذه القصة تشرح لنا هذا السبب بجلاء ووضوح .

يقول الإمام الطبرى معلقا على الآيات المذكورة : « يقول تعالى ذكره : ومن هؤلاء المنافقين الذين وصفت لك يا محمد صفتهم ﴿مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ﴾، يقول: أعطى الله عهدا ﴿ لَئِنْ آتَانَا من فَضْلِهِ ﴾ يقول : لئن أعطانا الله من فضله، ورزقنا مالا، ووسع علينا من عنده، ﴿ لَنَصَّدَّقَنَّ ﴾ يقول : لنخرجنَّ الصدقة من ذلك المال الذى رزقنا ربنا، ﴿وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ يقول : ولنعملنَّ فيها بعمل أهل الصلاح بأموالهم من صلة الرحم به، وإنفاقه فى سبيل الله، يقول الله تبارك وتعالى : فرزقهم الله، وآتاهم من

---

(١) انظر : جامع البيان ١٠ / ١٤٤ .

فضله، فلمَّا آتاهم الله منْ فضله بخلوا به بفضل الله الذى آتاهم، فلم يَصَّدَّقوا منه ولم يصلوا منه قرابة، ولم ينفقوا منه فى حقِّ الله، ﴿ وَتَوَلَّوْا ﴾ يقول : وأدبروا عن عهدهم الذى عاهدوه الله ﴿ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴾ عنه، فأعقبهم الله نفاقا فى قلوبهم ببخلهم بحقِّ الله الذى فرضه عليهم، فيما آتاهم من فضله، وإخلافهم الوعد الذى وعدوا الله، ونقضهم عهده فى قلوبهم ﴿ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ ﴾ من الصدقة والنفقة فى سبيله، ﴿ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴾ فى قيلهم، وحرمهم التوبة منه؛ لأنَّه جلَّ ثناؤه اشترط فى نفاقهم أنه أعقبهم إياه إلى يوم يلقونه، وذلك يوم مماتهم، وخروجهم من الدنيا »(١) .

٨ ـ التأخير إلى موقع الجندية بعد القيادة :

وذلك أن الواقع قد شهد بأن بعض الناس حين يكون فى موقع القيادة، ولسبب أو لآخر يردُّ إلى موقع الجندية، تكبر عليه نفسه، لاسيما إذا نظر إلى القيادة على أنها تشريف لا تكليف، غنائم لا تبعات، وحينئذ لا يكون منه إلا القعود، والتخلِّى عن أداء الواجب، وقد شاهدت بعينى رأسى شابّا نشطا عاملا لدين الله،وبلغ به نشاطه أن كانت له حلقة علمية، يحضرها كثيرون، ولسبب أو لآخر طلب منه أن يكون تلميذا لا أستاذا، جنديا لا قائدا فورمت أنفه، وشرق بريقه، وقعد عن العمل لدين الله، وترك الواجبات المنوطة به، وحين فوتح فى ذلك أجاب بأن الجندية خنق وقتل للمرء، والقيادة حرية وانطلاق، فكيف تضيع سنى القيادة، وأرضى بالجندية، وبينهما من الفرق ما بينهما، فكان الردُّ على الفور : « رحم الله أبا سليمان خالد بن الوليد، فقد جاءه كتاب العزل من أمير المؤمنين عمر لمصلحة رآها عمر، وكان هو القائد المظفَّر، فنفَّذ ما فى الكتاب وكله فَرَحٌ وسرور، وأخذ مكانه جنديا بين الجنود، وقال مقولته المشهورة : والله لو ولَّى علىَّ عمرُ عبدا أسود اللون لسمعتُ وأطعتُ ما دام يقودنى بكتاب الله ».

٩ ـ الاغترار بوعود الباطل :

وذلك أن الباطل يحاول بطريق أو بأخرى تكثير سواد القاعدين من المسلمين الدعاة العاملين لدين الله، وله فى ذلك أساليب كثيرة، ومنها الوعود البرَّاقة بمال، أو بمنصب، أو بوجاهة مثلما حاول عتبة بن ربيعة مع رسول الله ﷺ، ومن الناس من تنطلى عليه هذه الوعود، وينساق وراءها تاركا الالتزام بمنهج الله، والعمل لدينه من أجل الظفر

(١) انظر : جامع البيان ١٠ / ٦ / ١٣٠ .

بهذه الوعود، وقد شاهدنا فى تاريخ الحركة الإسلامية فى العصر الحاضر نفرا زيَّن لهم أهل الباطل القعود حين منحوهم بعض المناصب العليا فقعدوا، ثم ألقى بهم هؤلاء فى العراء عند أول تغيير لمن يشغلون هذه المناصب، وما أغنت عنهم هذه الوعود من الله شيئا، بل على العكس لقد أغضبوا ربهم حين ركنوا إلى الظالمين وآزروهم،أو أعانوهم على ظلمهم، وبغيهم فى الأرض بغير الحق .

وفى الأدب الرمزى : قصة الذى غضب لله أول مرة ؛ لأن شجرة تعبد من دون الله، وعبَّر عن غضبه هذا بمحاولة قطع الشجرة، ومنَّاه الشيطان الذى تمثَّل له فى صورة بشر مدافع عن الشجرة ببعض المال من كل صباح، فقعد طمعا فى تحقيق هذا الوعد، وما هى إلا أيام حتى ذاب هذا الوعد، وصار سرابا وحاول قطع الشجرة هذه المرَّة، ولم ينجح ؛ لأن غضبه لم يكن لله، وإنما كان للوعد الذى أخلف ولم يتحقق، وهكذا يؤدى الاغترار بوعود الباطل إلى القعود والتخلِّى عن الواجب .

### ١٠ ـ عدم وجود منهاج يملأ الحياة ويقضى على الفراغ :

وذلك أن المسلم إذا لم يشغل نفسه بمنهاج يملأ حياته ويقضى على الفراغ، من تدبر وتفكر إلى عبادات مخصوصة، كصلاة ونحوها، إلى رعاية للآداب الاجتماعية، إلى قيام بحق الأهل والولد، إلى كسب للعيش، إلى اشتغال بدعوة وهداية الآخرين، إلى الوقوف فى وجه الكفار والمنافقين الذين يصدون عن سبيل الله، ويبغونها عوجا، إلى غير ذلك مما يعد جزءا من رسالة المسلم فى الأرض ـ إذا لم يشغل المسلم نفسه بمنهاج كهذا، فإن نفسه الأمارة بالسوء تملى عليه، بإغواء من شياطين الجنِّ والإنس، وبتأثير من زخرف الحياة الدنيا، منهاجا باطلا غير ما يريد الله ورسوله، ويأخذ فى تنفيذ هذا البرنامج، وذلك هو عين القعود .

### ١١ ـ عدم ملاءمة المنهاج للطاقات والإمكانات :

وذلك أن المسلم لا يبقى حيًا نشطا متحركا إلا فى ظل منهاج ملائم لطاقاته وإمكاناته، ويوم أن يخلو المنهاج من هذه الملاءمة ، كأن يكون فوق المستوى، أو دون المستوى، فإن العاقبة ستكون القعود والترك إلا من رحم الله .

ولعل هذا هو سر مخاطبته ﷺ لكل واحد من أصحابه بما يلائمه ويتناسب مع ميوله وإمكاناته وطاقاته، بل وعلله، وأمراضه، فقد كان يخاطب الجميع خطابا عاما، ويأتى إلى الخاصة ويخاطبهم خطابا فوق خطاب العامة .

عن أنس بن مالك ﷺ أن النبى ﷺ ومعاذ رديفه على الرَّحْل، قال : « يا معاذ بن جبل »، قال: لبيك يا رسول الله وسعديك، قال : « يا معاذ »، قال : لبيك يا رسول الله وسعديك ( ثلاثا ) . قال : « ما من أحد يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله صِدْقًا من قلبه إلا حرَّمه الله على النَّار » .

قال : يا رسول الله، أفلا أخبر به النَّاس فيستبشروا ؟ قال : « إذًا يتكلوا » وأخبر بها معاذ عند موته تأثما (١) .

## ١٢ ـ عدم إعطاء العامل حقه من الاحترام والتوقير :

وذلك أن المرء غالبا ما يظل مستمرا فى أداء واجبه، والقيام بما تفرضه عليه رسالته ما لم يُهَنْ أو يحتقر، فإن حدث، وحرم هذا المرء حقه من الاحترام والتوقير فى حدود الضَّوابط الشرعية، فإنه يردُّ على ذلك غالبا بالقعود، والتخلى عن أداء الواجب .

ولعل هذا هو سر دعوته ﷺ المسلمين أن يراعوا الآداب الاجتماعية فيما بينهم إذ يقول : « ليس منا من لم يرحم صغيرنا ، ويوقر كبيرنا ، ويأمر بالمعروف ، وينه عن المنكر » (٢) . وفى رواية: « ليس منا مَنْ لم يرحم صغيرنا، ويعرف شرف كبيرنا، أو: حقّ كبيرنا » (٣) .

---

(١) الحديث أخرجه البخارى فى : الصحيح : كتاب العلم : باب من خص بالعلم قوما دون قوم كراهية ألا يفهموا ١ / ٤٤، ومسلم فى : الصحيح : كتاب الإيمان : باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعا ١ / ٦١ رقم (٣٢) ، كلاهما من حديث أنس بن مالك ﷺ مرفوعا، واللفظ للبخارى.

(٢) الحديث أخرجه الترمذى فى : السنن : كتاب البر والصلة : باب ما جاء فى رحمة الصبيان ٤/ ٢٨٤ رقم ( ١٩٢١ ) ، وعقب عليه بقوله : « هذا حديث حسن غريب »، وأحمد فى: المسند ١ / ٢٥٧، كلاهما من حديث عكرمة عن ابن عباس مرفوعا، واللفظ للترمذى.

(٣) هذه الرواية أخرجها الترمذى أيضا فى : السنن : كتاب البر والصلة : باب ما جاء فى رحمة الصبيان ٤/ ٢٨٤ رقم ( ١٩٢٠ ) من حديث محمد بن إسحاق عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال : قال رسول الله ﷺ، وساق الحديث بهذا اللفظ، وعقب عليه بقوله: « وحديث محمد بن إسحاق، عن عمرو بن شعيب حديث حسن صحيح »، وأخرجها أحمد فى : المسند ٢ / ٢٠٧ من حديث محمد بن إسحاق عن عمرو بن شعيب عن أبيه، عن جده أن رسول الله ﷺ قال : « ليس منا من لم يعرف حق كبيرنا، ويرحم صغيرنا » ومعنى قوله ﷺ : « ليس منا » : ليس من سنتنا، ليس من أدبنا، هذا رأى نفر من العلماء، وقال على بن المدينى: قال يحيى بن سعيد : كان سفيان الثورى ينكر هذا التفسير ـ أى الذى قدمنا عن نفر من العلماء ـ ويقول : ليس منا : ليس من ملتنا ، هكذا ذكر التفسيرين الإمام الترمذى فى السنن ٤ / ٢٨٤، والتفسير الجامع بين التفسيرين المذكورين قياسا على ما ذكره ابن حجر فى فتح البارى ٩ / ١٠٤، ١٠٥ فى معنى قوله ﷺ فى حديث الرهط الذين عزموا على التبتُّل، وترك الزواج : « فمن رغب عن سنتى فليس منى » هو أن نقول : إن كان عدم قيامه بحق الكبار، ورحمة الصغير ناشئا من تأويل مع ذهول وعدم انتباه، فالمراد المعنى الأول، وإن كان ناشئا من أعراض وتنطع عن الهدى النبوى بحجة أنه ليس بشىء، فالمراد المعنى الثانى، والله أعلم .

### ١٣ ـ تحميل النفس من الواجبات فوق ما تطيق :

وذلك أن أى عمل من الأعمال تكون له فى البداية حلاوة، وقد يلقى من العامل إقبالا، واستفراغا لكل ما فى وسعه، وما فى طاقته، وربما رأى ذلك مَنْ يحيطون به، فيلقون ببعض ما فى أيديهم من واجبات وتكاليف عليه، ولا يلتفت هو إلى ذلك، ويقبل منهم، ويمضى، وبعد فترة من الزَّمان يجد نفسه قد أنهكه العمل وأضناه، فيفتر، وإذا لم يبادر بالعلاج والتخلص من هذه الحال يكون القعود، والانقطاع عن أداء الواجب، وفى آفة « الغلو فى الدين أو التنطع » من الجزء الثالث من هذا الكتاب صورة دقيقة لكيفية إيصال هذه الآفة صاحبها إلى القعود والترك .

### ١٤ ـ عدم تجاوز الآخرين عن أى هفوة من الهفوات :

وذلك أن المرء بطبيعته مجبول على الخطأ باستثناء الأنبياء والمرسلين لما أكرمهم الله عز وجل به من العصمة، والمحاسبة سبيل من سبل التخلص من هذا الخطأ .

ومن أساليب المحاسبة التجاوز أحيانا عن بعض الهفوات والزلات اليسيرة كيلا يسيطر اليأس والقنوط على النفس، وقد لا ينتبه البعض إلى هذا الأسلوب، ويحمله إتقان العمل وإجادته على المؤاخذة فى كل الأمور حتى لو كانت يسيرة بسيطة، وربما لا يتحمل العامل ذلك وتكون العاقبة القعود، والتخلى عن أداء الواجب .

ولعل هذا هو سرُّ دعوة الإسلام إلى العفو مع القدرة على الانتقام والبطش . إذ يقول سبحانه : ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٣٤)﴾ [آل عمران] . ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ (١٩٩)﴾ [ الأعراف ] . ﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ [ النور : ٢٢ ] .

### ١٥ ـ الظنُّ أن فى القعود سلامة وعافية :

وذلك أن الشيطان قد يسول لبعض الناس القعود وترك العمل لدين الله بحجة حماية نفسه، وغيره من المحنة، لاسيما فى عصرنا هذا الذى تَنَمَّر فيه الباطل، وتفرغ للعاملين لدين الله بحيث لم يعد لديه من شغل شاغل إلا هُم، ناسيا أو متناسيا أن السلامة والعافية منَّة ومحض فضل من الله سبحانه وتعالى، بيد أن سنته سبحانه وتعالى مضت أن يمنحهما للمتقين العاملين، كما قال سبحانه : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ

وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ﴾ [ النور : ٥٥ ]. ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ [الأنعام]. ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ﴾ [ الرعد ] .

وربما يدخل الشيطان من مدخل آخر : إذ يقول للعامل : إنك تخطئ وترتكب كثيرا من المعاصى والآثام، وهذا يؤخر عون الله، وتأييده عن العاملين، بل ربما يكون سببا فى كارثة أو محنة تنزل بالجميع، وخير لك أن تبتعد من طريق هؤلاء البررة الأتقياء من عباد الله لتحل عليهم السلامة، وتصيبهم العافية، ناسيا أو متناسيا أنهم مثله يصيبون ويخطئون، غير أنه وهؤلاء لا يصرون على الخطأ بل يبادرون بالتوبة، والإنابة، والرجوع إلى الله عز وجل .

### ١٦ ـ عدم استجابة الآخرين :

وذلك أن نفرا من الدعاة يتوهم أنه لا ينجح فى مهمته إلا إذا استجاب الآخرون، وقبلوا منه ما يقول، فإن لم يستجيبوا لما يقول كان منه القعود، والتخلى عن المضى فى الطريق إلى نهايتها ناسيا أو متناسيا أن قلوب العباد جميعا بين أصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد يصرِّفه كيف يشاء، وأن الله قال لنبيه : ﴿ إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ﴾ [ القصص: ٥٦ ] . ﴿ إِنْ عَلَيْكَ إِلاَّ الْبَلاغ ﴾ [ الشورى :٤٨ ] .

### ١٧ ـ الغفلة عن عاقبة القعود :

وأخيرًا قد تكون الغفلة عن الآثار والعواقب المترتبة على القعود ـ فردية كانت أو جماعية، دنيوية كانت أو أخروية ـ هى السبب فى القعود، وقد رأينا فى العصر الحاضر نفرا ممن قعدوا فى حال لا يحسدون عليها الآن، وهم يقولون: والله لو درينا أن القعود سيصل بنا إلى هذا المستوى، وإلى هذا الحال ما قعدنا .

## رابعا : آثار القعود :

هذا وللقعود آثار ضارة، وعواقب مهلكة سواء على العاملين أو على العمل الإسلامى، ودونك طرفا من هذه الآثار والعواقب :

### أ ـ على العاملين :

فمن آثار القعود على العاملين :

١ ـ تفرد الشياطين بهم ثم افتراسهم :

إذ مَنْ قعدوا عن الالتزام بالإسلام بالمرَّة صاروا موالين للشياطين من الجن والإنس، وأما الذين انفصلوا عن العاملين لدين الله، وعاشوا وحدهم ملتزمين فى أنفسهم وأهليهم بمنهج الله، فهؤلاء سمحوا للشياطين أن يتفردوا بهم، ثم يفترسوهم، كما قال النبى ﷺ : « . . . فمن أحبَّ منكم بحبوحة الجنة، فليلزم الجماعة، فإن الشيطان مع الواحد، وهو من الاثنين أبعد »(١) .

٢ ـ مضاعفة الذنوب والآثام الأمر الذى ينتهى أن تكون الجحيم هى المأوى :

وذلك أن القاعدين يفتحون بابا واسعا أمام كثيرين من الضعفاء والعامة، ممن يقتدون بهم، فيقعدون قعودهم، وبهذا يحملون وزرين : وزر قعودهم، ووزر إقعاد غيرهم، إذ يقول سبحانه : ﴿ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَّعَ أَثْقَالِهِم ﴾ [ العنكبوت : ١٣ ] . ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلا سَاءَ مَا يَزِرُونَ(٢٥) ﴾

[ النحل ]

وتتضاعف الذنوب والآثام بدوام القعود حتى تكون الجحيم هى المأوى والعياذ بالله.

٣ ـ الذل والهوان :

وذلك أنهم حين قعدوا عن نصرة دين الله لم يمنعهم هذا القعود من أن ينزل بهم قدر الله، وقد قدر الله حياة الذل والهوان فى الدنيا والآخرة على كل من تولى وأعرض عن ذكره سبحانه وتعالى، فقال : ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ (١٢٤) ﴾ [ طه ]. ﴿ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا (١٧) ﴾ [ الجن ] .

وقد عشنا وشاهدنا فى العصر الحاضر من قعد عن نصرة دين الله بعد أن كان شعلة نشاط، وما كان له من مبرر إلا الإبقاء على النفس، والأهل، والمال، والولد، ومضى قدر الله، ولم يظفر بما أراد، وعاد يندب حظه، ويقول : ﴿ يَا لَيْتَنِي كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا (٧٣) ﴾ [ النساء ] .

---

(١) الحديث أخرجه الترمذى فى: السنن: كتاب الفتن: باب ما جاء فى لزوم الجماعة ٤/ ٤٠٤ رقم (٢١٦٥) وعقب عليه بقوله: « هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه » من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، وأحمد فى : المسند ١ / ٢٦ من حديث جابر بن سمرة رضي الله عنه .

ب ـ على العمل الإسلامى :

ومن آثار القعود على العمل الإسلامى :

١ ـ إضعاف هذا العمل، وتعريضه للاغتيال أو على الأقل الإجهاض بحيث لا يؤتى ثماره إلا بعد تكاليف كثيرة وزمن طويل .

ذلك أن هذا الصنف من القاعدين لم يقتصر قعوده على نفسه، بل تعداه إلى قعود الآخرين اقتداء، وتأسيا، بل أبعد من ذلك أغلق الباب فى وجه من يريدون الالتزام بدين الله والعمل له لأول مرة، إيثارًا للسلامة والعافية بزعمهم، ولا شك أن هذا إضعاف للعاملين، وللعمل الإسلامى، ومعروف أن المبطلين لا يتمكنون من العاملين والعمل الإسلامى إلا فى مثل هذا الجو من الضعف والتفرق .

٢ ـ تعريض العاملين لدين الله لشدائد وامتحانات لا تطاق من انتهاك للأعراض، وسلب للأموال، وسفك للدماء، أو على الأقل التضييق والتعذيب، أو النفى والتشريد فى الأرض، وكل هذه الجرائم بسبب قعود القاعدين . وما لقيه أبناء الحركة الإسلامية فى مصر من التعذيب فى أوائل الخمسينات بسبب انسحاب نفر من العلماء من الصف، ومعهم ما لا يحصى من المتأثرين بهم، والواثقين فيهم ـ شاهد صدق على ما نقول، ويتحمل هذا النفر إثم ما نزل بهؤلاء إلا أن يعفو الله عنهم، ويتجاوز .

وما يلقاه العمل الإسلامى اليوم بعموم من انسحاب نفر من الميدان، وقبوله أن يكون سوطا فى يد الباطل يلهب به ظهور العاملين ويحرِّض عليهم، ويخيف الناس منهم ـ لهو شاهد صدق كذلك على ما نقول .

خامسا : علاج القعود :

وفى ضوء ما قدمنا من أسباب القعود وبواعثه يمكن رسم طريق الخلاص، بل طريق الوقاية من هذا القعود، ودونك معالم هذه الطريق :

١ ـ استشعار نعم الله التى أنعم بها علينا فى أنفسنا، وفى الكون المحيط بنا، ظاهرة كانت هذه النعم أو باطنة، حيث يقول سبحانه : ﴿ **وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ (٣٤)** ﴾ [ إبراهيم ] . ﴿ **وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً** ﴾

[ لقمان : ٢٠ ]

وأن هذه النعم ينبغى أن تقابل بالشكر كى تدوم، وشكر النعمة إنما يكون بتوظيفها فيما خلقت له، لا باستخدامها فيما يغضب الله ويسخطه، فإنَّ مثل هذا الاستشعار قد يحرك النفس من داخلها ويحملها على النهوض من جديد .

٢ ـ استشعار القاعد مسؤوليته أمام الله يوم القيامة عما يلقاه المسلمون المضطهدون، الملاحقون فى كل مكان : فى البوسنة والهرسك، فى الجمهوريات الإسلامية فى آسيا، فى كشمير المسلمة، فى بورما، فى أريتريا، فى الفلبين، فى دول البلقان، فى إفريقيا، فى بلاد العرب، فى فلسطين، فيما لا نعلمه بسبب التعتيم الإعلامى المقصود، ويعلمه الله عز وجل .

وماذا سيكون جوابه لربه غدا يوم يقوم الناس لرب العالمين، يوم لا تملك نفس لنفس شيئا والأمر يومئذ لله، فإن هذا الاستشعار من شأنه أن يخيف صاحب الفطرة السليمة، والعقل الراشد فيجاهد نفسه على التحرر من القعود، ويعمل على النهوض من جديد .

٣ ـ التوسط فى تعاطى المباحات من غير إفراط أو تفريط، مع اليقين أن فى ذلك عافية لنا فى أبداننا، وعقولنا، وأرواحنا، وأن ما نحرم أنفسنا منه اليوم سنلقاه غدا فى أكمل وأبهى صورة : ﴿ **قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ** (٣٢) ﴾ [ الأعراف ] .

٤ ـ إخراج حب الدنيا ـ بوسيلة أو بأخرى ـ من القلوب فإن حب الدنيا رأس كل خطيئة، وهذا لا يمنع أن تكون هذه الدنيا فى أيدينا نتبوأ منها حيث نشاء، شريطة أن تكون من حلال، وأن نؤدى حق الله فيها، بل أن نتنازل عنها جميعا لله إن اقتضت الحال ذلك، كما أثر عن أبى بكر الصديق رضي الله عنه وأرضاه، فإن مثل هذا الصنيع مع الدنيا من شأنه أن يحمل القاعد على النهوض والاستمرار إلى أن يقضى الله أمرًا كان مفعولا .

اقتضت الحال ذلك، كما أثر عن أبى بكر الصديق رضي الله عنه وأرضاه، فإن مثل هذا الصنيع مع الدنيا من شأنه أن يحمل القاعد على النهوض والاستمرار إلى أن يقضى الله أمرًا كان مفعولا .

٥ ـ دوام النظر فى كتاب الله، وسنة الرسول ﷺ للوقوف على أخبار القاعدين، المخلفين، وما صاروا إليه من ذل وهوان فى الدنيا والآخرة، فلعل مثل هذا النظر يخوف القاعد إن كان له قلب، فيبادر بترك القعود، ويحمل نفسه على النهوض حماية لها من أن تصير إلى ما صار إليه هؤلاء القاعدون من قبل، وأن يذيقها الله من الذل والهوان فى الدنيا والآخرة مثلما صنع بهؤلاء، وسورة النساء، والتوبة، والأحزاب، والفتح من أوسع سور القرآن حديثا عن هذا الصنف من الناس .

٦ ـ تأمل واقع هؤلاء القاعدين اليوم، وكيف صاروا أسهما فى كنانة أعداء الله، ورسوله والمؤمنين، يصوِّبونه إلى صدور العاملين، فتقوى بهم شوكة هؤلاء الأعداء، حتى إذا استنفذوا بغيتهم منهم خلعوهم من أقدامهم، وألقوا بهم فى مزبلة التاريخ، فخسروا الحياتين جميعا الدنيا والآخرة، وخسارة الآخرة أشد : ﴿ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴿١٥﴾ ﴾ [ الزمر ] .

٧ ـ مجاهدة النفس من أجل أن تستصحب نية الجهاد والعمل لدين الله عز وجل، ثم تنفيذ ما تقتضيه هذه النية، ولكن مع الصدق والإخلاص، واتباع السنة، فلعل الله عز وجل بهذه النية يَمُنُّ على هذا الصنف القاعد من الناس وينتشله من وهدة القعود، إلى قمة النهوض والعمل، إذ يقول سبحانه : ﴿ وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى ﴾ [ مريم : ٧٦ ] . ﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴿١٧﴾ ﴾ [ محمد ] .

٨ ـ الانقطاع عن صحبة القاعدين إلا بالقدر الذى به يكون العمل على انتشال هؤلاء من قعودهم هذا، مع الارتماء وبسرعة فى وسط العاملين، فإن ذلك مما يقوِّى العزيمة، ويعلى الهمة، ويثبت النفس، ويحملها على الاقتداء والتأسى، فإن لم يكن فالتشبه والمحاكاة .

٩ ـ دوام النظر فى وعد الله ورسوله للمؤمنين بالنصر والغلبة والتمكين فى الأرض، وكيف حقَّق ذلك للمؤمنين أول مرة حين نهضوا، وما كانوا يوما من القاعدين، وسيظل هذا الوعد قائما إلى يوم الدين شريطة أن نكون مؤمنين حقا نرفض القعود، والذل، والهوان، ونمضى فى الطريق عاملين لا نلوى على شىء إلا على مرضاة الله، ورسوله، فإن مثل هذا النظر مما يحرك النفوس الأبية الكريمة ويحملها على النهوض، وترك القعود .

١٠ ـ الانتباه إلى معوقات الطريق من الأزواج، والأولاد، والأموال، والسلطان، والجاه، ونحوها كى نأخذ لها الأهبة والاستعداد، ونعلم أن هؤلاء لن يغنوا عنا من الله عز وجل شيئا . ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِن تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ ﴾ [التغابن] . ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [ المنافقون ] .

١١ ـ المبادرة بعمل منهاج يستوعب الحياة بأشكالها وصورها، ويكون ملائما لطاقات وإمكانات الناس، ولا سيما هذا الصنف من القاعدين، على أن يكون كتاب الله وسنة رسوله هما الأساس والأصل فى وضع مثل هذا المنهاج .

فإن مثل هذا المنهاج من شأنه أن يقضى على كل لحظات الفراغ التى يمكن أن تستغل من قبل شياطين الجن وشياطين الإنس، ويفتح الباب أمام القاعدين للنهوض من جديد .

١٢ ـ مجاهدة النفس على احترام وتوقير الآخرين لاسيما أهل الفضل والدين، بل مجاهدتها على ألا تحمل من التكاليف والواجبات إلا ما تطيق، نظراً لطول الطريق ومشقة التكاليف، فإن هذه المجاهدة من شأنها أن تحرك القاعدين فينهضون من جديد .

١٣ ـ التجاوز وقت المحاسبة عن بعض الهفوات والزلات التى لا يسلم منها بشر، والتى لا تصل إلى حد التطاول على حق الله وحقوق عباده، فإن مثل هذا التجاوز من شأنه أن يقضى على اليأس والقنوط، وأن يفتح باب الأمل والرجاء، فإذا القاعدون نهوض يعملون .

١٤ ـ استقبال تغيير الموقع ـ ولا سيما من الأعلى للأدنى، من القيادة إلى الجندية ـ بفرح وسرور، وراحة بال، وهدوء خاطر، فإنه كلما علت منزلة الإنسان فى المسؤولية كان الحساب أشد والمؤاخذة أعظم على حد قوله تعالى : ﴿ يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ ﴾ [ الأحزاب ] .

١٥ ـ مواجهة وسوسة شياطين الجن والإنس، وإغراء الحياة الدنيا بأن فى القعود سلامة وراحة وعافية بأن هذا هو الهلاك بعينه، كما قال سبحانه عن هؤلاء الذين تخلفوا عن تبوك فرارا من التكاليف، وإيثارا للراحة، والسلامة والعافية : ﴿ لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّاتَّبَعُوكَ وَلَٰكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾ [ التوبة ] . ﴿ فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾

[ التوبة ]

ولعل مما يوضح أن القعود هوالهلاك بعينه، هذه الآثار عن أبى عمران رضي الله عنه قال : «كنا بالقسطنطينية، وعلى أهل مصر عقبة بن عامر، وعلى أهل الشام رجل ـ يريد

فضالة بن عبيد ﷺ ، فخرج من المدينة صف عظيم من الروم، فصففنا لهم، فحمل رجل من المسلمين على الروم،حتى دخل فيهم، ثم خرج علينا فصاح الناس إليه، فقالوا : سبحان الله ألقى بيده إلى التهلكة، فقام أبو أيوب الأنصارى ﷺ صاحب رسول الله ﷺ فقال : يا أيها الناس، إنكم لتأوّلون هذه الآية على هذا التأويل، إنما نزلت هذه الآية فينا معشر الأنصار، إنا لما أعز الله دينه، وكثر ناصروه، فقلنا ـ فيما بيننا بعضنا لبعض سرا من رسول الله ﷺ : إن أموالنا قد ضاعت فلو أقمنا فيها، فأصلحنا ما ضاع منها، فأنزل الله عز وجل يرد علينا ما هممنا به، فقال : ﴿ **وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ** ﴾ [ البقرة :١٩٥ ] .

فكانت التهلكة فى الإقامة التى أردنا أن نقيم فى أموالنا نصلحها، فأمرنا بالغزو، فما زال أبو أيوب ﷺ غازيا فى سبيل الله حتى قبضه الله عز وجل»(١) .

ومن وجه آخر، عن أبى عمران ﷺ قال: «غزونا المدينة ـ يعنى القسطنطينية ـ وعلى الجماعة عبد الرحمن بن خالد بن الوليد، والروم ملصقوا ظهورهم بحائط المدينة، فحمل رجل على العدو فقال الناس : مَهْ، مَهْ(٢) ، لا إله إلا الله، يلقى بيده إلى التهلكة، فقال أبو أيوب الأنصارى ﷺ: إنما أنزلت هذه الآية فينا معشر الأنصار، لما نصر الله نبيه، وأظهر الإسلام، قلنا : هلمَّ نقيم فى أموالنا ونصلحها، فأنزل الله تعالى : ﴿**وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ** ﴾ [ البقرة : ١٩٥ ] .

فالإلقاء بأيدينا إلى التهلكة أن نقيم فى أموالنا ، ونصلحها ، وندع الجهاد ، قال أبو عمران ﷺ : فلم يزل أبو أيوب يجاهد فى سبيل الله حتى دفن بالقسطنطينية »(٣) .

ومن وجه ثالث، عن أبى عمران ﷺ قال: « حمل رجل من المهاجرين بالقسطنطينية على صفِّ العدو حتى خرقه، ومعنا أبو أيوب الأنصارى ﷺ فقال ناس : ألقى بيده إلى

---

(١) الحديث أخرجه الترمذى فى: السنن: كتاب تفسير القرآن: باب ومن سورة البقرة ٥/ ١٩٦ رقم (٢٩٧٢) وعقب الترمذى على حديثه بقوله : « هذا حديث حسن صحيح غريب » من حديث أسلم أبى عمران التجيبى بنحو هذا اللفظ، والنسائى فى : السنن الكبرى : كتاب التفسير : باب قوله تعالى : ﴿ **وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ** ﴾ ٦/ ٢٩٩ رقم ( ١١٠٢٩) من حديث أسلم أبى عمران . وأورده الشيخ محمد يوسف فى : حياة الصحابة ١/ ٤٧٠ نقلا عن البيهقى .

(٢) مَهْ : اسم فعل أمر مبنى على السكون بمعنى : اكفف . انظر : المعجم الوسيط ٢ / ٨٨٩ .

(٣) الحديث أخرجه أبو داود فى: السنن : كتاب الجهاد : باب فى الجرأة والجبن ٣/ ١٢، ١٣ رقم (٢٥١٢) من حديث أسلم أبى عمران التجيبى بهذا اللفظ، وأورده الشيخ محمد يوسف فى : حياة الصحابة ١/ ٤٧٠، ٤٧١ نقلا عن البيهقى .

التهلكة، فقال أبو أيوب : نحن أعلم بهذه الآية، إنما نزلت فينا، صحبنا رسول الله ﷺ وشهدنا معه المشاهد، ونصرناه، فلما فشا الإسلام، وظهر اجتمعنا معشر الأنصار تخفيًا، فقلنا : قد أكرمنا الله بصحبة نبيه ﷺ ونصره، حتى فشا الإسلام، وكثر أهله، وكنا قد آثرناه على الأهلين، والأموال، والأولاد، وقد وضعت الحرب أوزارها، فنرجع إلى أهلينا، وأولادنا فنقيم فيهم، فنزل فينا : ﴿ وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة:١٩٥]، فكانت التهلكة فى الإقامة فى الأهل، والمال، وترك الجهاد»[1].

١٦ ـ لا ينبغى أن يصرفنا عدم استجابة الآخرين إلى ما ندعوهم إليه عن الدعوة إلى الله، بل لابد من الاستمرار مع تخير أحسن وأنجح الأساليب، ونكل أمر القلوب بعد ذلك إلى الله، وهو سبحانه حين يرى منا الصدق والإخلاص، واستفراغ كل الأساليب والوسائل، لن يضيع علينا ثمرة جهدنا وعطائنا، وحسبنا الأجر والمثوبة : ﴿وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ﴾ [ القصص : ٨٠ ] .

(١) الحديث أورده الشيخ محمد يوسف فى : حياة الصحابة ١ / ٤٧١ نقلا عن ابن كثير فى : تفسير القرآن العظيم .

obeikandl.com